قراءة التراث الإسلامي
بين ضوابط الفهم وشحطات الوهم

أعمال المؤتمر العلمي الأول
لكلية أصول الدين بالقاهرة

قِرَاءَةُ التُّرَاثِ الإِسْلَامِي بَيْنَ ضَوَابِطِ الفَهْمِ وشَطَحَاتِ الوَهْمِ

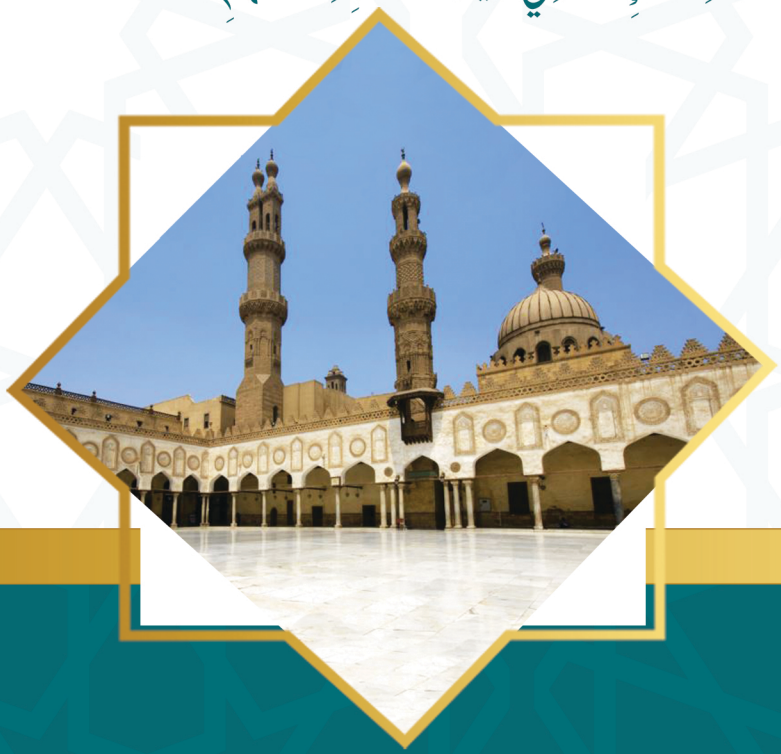

8 ،9 جمادى الثانية 1439هـ / 7، 8 مارس 2018م

برعاية فضيلة الإمام الأكبر
الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب (شيخ الأزهر)

برئاسة الأستاذ الدكتور
عبد الفتاح عبد الغني العواري
(عميد كلية أصول الدين)

المجلد الرابع

أعمال المؤتمر العلمي الأول

لكلية أصول الدين بالقاهرة

« قِرَاءَةُ التُرَاثِ الإِسْلامِي بَيْنَ ضَوَابِطِ الفَهْمِ وَشَطَحَاتِ الوَهْمِ »

٨، ٩ جمادى الثانية ١٤٣٩هـ / ٧، ٨ مارس ٢٠١٨م.

برعاية فضيلة الإمام الأكبر

الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب (شيخ الأزهر)

برئاسة الأستاذ الدكتور

عبد الفتاح عبد الغني العواري

(عميد كلية أصول الدين)

«المجلد الرابع»

مجموع أعمال المؤتمر العلمي الأول

لكلية أصول الدين – القاهرة

برعاية الإمام الأكبر

أ.د/ أحمد الطيب (شيخ الأزهر

البحث الثامن عشر
موقف الحداثيين من السنة النبوية
إعداد/ د. عماد عطية عبد الرازق

تمهيد

منذ اليوم الذي أعلن فيه النبي ﷺ أنه رسول من عند الله تعالى، انحاز بعض الناس للحق وآمنوا به رغم قلة العدد والعدة واليقين بالخطر المترتب على قرار الدخول في الإسلام، بينما وقف كثيرون في وجه هذا الحق، ورفضوا الدخول في الإسلام بدافع الالتزام لما كان عليه الآباء والأجداد، وكانت البداية قول أبي لهب: تبًا لك ألهذا جمعتنا؟ إنها عبارة تحمل رصيدًا من حقد وكراهية لهذا الرجل الذي جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربه.

لكن النبي ﷺ لم يأبه لها ولأمثالها من الكلمات والدعوات المناهضة التي تعوق وصول هذا الدين للبشر جميعًا، لكن الصراع بين الحق والباطل اشتد لما قويت شوكة المسلمين بعد الهجرة، وبعد اكتمال التشريع الشمولي الواقعي الذي راعى حاجيات الإنسان في كل مناحي حياته ازداد الصراع إلى يومنا هذا، وأخذ يتشكل بأشكال شتى، ويسانده شخوص في كل زمان ومكان، وأصبحت كلمة أبي لهب: تبًا لك مثلًا يعلنه الأعداء في وجه المنتسبين لهذا الدين عبر أفكار تجابه الإسلام.

ومن هذه الأفكار الفكر الحداثي الذي نشأ وترعرع في أرض غربية، ثم انتقل لعالمنا الإسلامي وهو يحمل معتقدات وعادات تعرف منها وتنكر، وأكثرها ليس لها صلة بالإسلام، وأعلن الحرب على القرآن الكريم والسنة النبوية والتراث الإسلامي برمته.

وفي هذا البحث الذي هو بعنوان "موقف الحداثيين من السنة النبوية" عرضت لمفهوم الحداثة، ثم بينت أسباب نشأة التيار الحداثي، وكيفية انتقاله إلى عالمنا الإسلامي، ثم فصلت القول في موقف الحداثيين من السنة النبوية، وتتبعت ما خطوه بأيديهم في كتبهم عن شخص النبي ﷺ، ومفهومهم عن السنّة، وموقفهم من تدوينها وحجيّتها ونَقَلَتِها من أكابر الصحابة والعلماء.

وأسأل الله التوفيق والسداد

مفهوم الحداثة عند الحداثيين:

احتل مفهوم الحداثة في الفكر العربي المعاصر مكانة كبيرة لدى المتطلعين إلى تحديث الدين الإسلامي وتجديده، والانقضاض على تراثه، وتغريب العقل المسلم، فجعلوا الحداثة نقيض القديم والتقليدي، كما اعتبروها حركة نهضوية وتطويرية وإبداعية تهدف إلى تغيير نمط التفكير؛ لهذا فإن الحداثة عندهم "تعني الانتقال من التراث الذاتي إلى تراث الغير، ليس على مستوى الثقافة بل على مستوى السلوك اليومي والعادات والتقاليد"[1]، وقصد هذا المفهوم أن يأخذ العالم الإسلامي بعيدًا عن ثوابته إلى تقليد الغرب في عاداتهم اليومية.

وفسّر عبد المجيد الشرفي[2] الحداثة ليزداد الأمر وضوحًا، حيث قال: «هي اللفظ المرادف للمحاولات الرامية إلى تحقيق تلك النماذج الغربية أساسًا، بكل ما ينشأ عن استيراد أنماط أجنبية من مشاكل وردود فعل»[3]، وقد صدّر الشرفي مفهومه عن الحداثة بالمحاولات التي تهدف لتقديم أو زرع نموذج غربي في المجتمعات الإسلامية؛ ليعمل على تغريب العقل الإسلامي من جهة، وإهدار قيمة التراث الديني من جهة أخرى، غير مبالٍ بردود الأفعال التي تنتج عن اختلاف الثقافات، وما تجلبه هذه النمذجة من اختلال منظومة القيم الدينية، والاصطدام بالثوابت الراسخة، واستبدال الأخلاقيات المتعارف عليها بأخرى لا صلة لها بدين أو عرف.

وأراد أحد أقطاب التيار الحداثي أن يُعمّي على الناس، ويُخفي الهدف الحقيقي من وراء هذا الفكر، فذكر أنّ الحداثة في مضمونها "لا تعني رفض التراث، ولا القطيعة مع الماضي بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة

---

(١) حسن حنفي، دراسات فلسفية (ص٦٦) مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م.

(٢) **عبد المجيد الشرفي**: تونسي المولد، أستاذ الحضارة العربية الإسلامية بجامعة تونس، وعضو رابطة العقلانيين العرب. **ومن مؤلفاته**: الإسلام بين الرسالة والتاريخ؛ الإسلام والحداثة. انظر: مراد هوفمان، مستقبل الإسلام في الغرب والشرق، ترجمة: عبد المجيد الشرفي، (مقدمة الكتاب).

(٣) الشرفي، الإسلام والحداثة (ص٢٥) الدار التونسية للنشر، تونس، ط٢، ١٩٩١م.

مع التراث إلى مستوى ما نسميه بالمعاصرة؛ أعني مواكبة التقدم الحاصل على الصعيد العالمي"[1]، لكنه انقضاض على التراث الإسلامي بحجة مواكبة العصر.

وهذا ما أفصح عنه بعد ذلك عندما تعرض لمفهوم الخطاب الحداثي؛ حيث قال: «يجب أن يتجه خطاب الحداثة أولًا وقبل كل شيء إلى التراث؛ بهدف إعادة قراءة التراث وتقديم رؤية عصرية عنه»[2]؛ لهذا " يّن شياطين الإنس والجن الرغبة في التخلص من كل قديم؛ حتى لا يبقى في حياة الناس ركائز يستقر عليها"[3]، والحداثة بهذا المفهوم لغم أوشك على الانفجار في التراث الديني، بحجة العصرية والتجديد التي يرنو إليها أصحاب هذا التيار.

وبعد هذا الطرح الفكري لدى الحداثيين يمكننا القول بأن الحداثة مذهب فكري علماني، بُني على أفكار وعقائد غربية، ويهدف إلى إلغاء مصادر الدين، وكل ما صدر عنها من عقيدة وشريعة، ويعمل على تحطيم كل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية بحجة أنها قديمة وموروثة؛ لِتُبنَى الحياة على الإباحية والفوضى والغموض وإثارة الغرائز الحيوانية، وذلك باسم الحرية[4]، فهي أفكار مستوردة، سُطِّرت بأقلام عربية المسمى غربية المعتقد والهوى، مقصدها الأساس الهدم والتخريب، والثورة على القرآن الكريم والسنة النبوية والتراث الإسلامي، والعقائد والأخلاق بحجة التجديد والمعاصرة؛ لذا فلنحذر أن ننخدع بمصطلحات برّاقة تحمل في طياتها ألغام توشك أن تحطم كل الثوابت الدينية.

نشأة الفكر الحداثي:

في العصور الوسطى هيمنت الكنيسة على النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، فلا يستطيع أحد أن يفكر إلا من خلالها، بل لا يجرؤ أحد على الإبداع إلا بعد قبولها، ولا يُرشّح حاكم إلا

---

(١) محمد عابد الجابري، التراث والحداثة دراسات ومناقشات (ص١٥، ١٦) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩١م.

(٢) محمد عابد الجابري، التراث والحداثة (ص١٧).

(٣) عدنان علي رضا النحوي، الحداثة من منظور إيماني (ص١٨) دار النحوي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط٣، ١٩٨٩م.

(٤) مانع بن حماد الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢/ ٨٦٧) دار الندوة العلمية للطباعة والنشر، الرياض، السعودية، ط٤، ١٤١٨هـ.

بإذنها، فتحكمت في البلاد والعباد والعقول، لكن لم يَدُم هذا الوضع طويلًا حتى خرج من رحم تسلُّطِها فكرة العلمانية، التي جابهت رجال الدين المحتكرين للحقيقة – من وجهة نظرهم – وسرعان ما أنتجت تيارات فكرية دخلت في صراع على كل ما هو ديني، ورسمت خطة العمل التي تقاوم الكنيسة وجبروت رجالها[1]، ومن ذلك التيار الحداثي الذي جيّش جيوش من الفلاسفة الغرب[2] ضد المعتقدات الدينية ونصوص الكتاب المقدس، وعمل على نزع قداستها وإسقاط هيبتها في قلوب الشعوب الغربية.

لهذا.. "تحوّل الدين في أوروبا إلى عاطفة تَقْوَى وتَضْعُف في نفوس الناس، وإلى حقد على الإسلام، وأداة للاعتداء على الشعوب، ونهب الثروات، ونشر الفساد في الأرض، وفيما عدا ذلك فقد عُزل الدين عن المجتمع في نظام حياة علماني، واعتبر الكثيرون أن هذا تحررًا وتقدمًا وتحديثًا للحياة، وأصبح عزل الدين عن الحياة أساسًا من أسس الحداثة"[3]، وبعد هذا النجاح في إبعاد الدين عن حياة الناس، بدأت الفكرة الحداثية تنمو في الغرب حتى تبلورت واستقرت.

وراق لأصحاب الفكر الحداثي الغربي أن يصدّروه للشرق، فبحثوا عن ناقل له من أبناء الشرق الناقمين على الإسلام، ولاقى البحث أرضًا خصبة لِتقَبُّلِها ممن يَتَسَمّون بأسماء إسلامية؛ لكن قلوبهم تهوى العيش على النمط الغربي دون وازع من دين، وتم اختيارهم بعناية فائقة ومتنوعة؛ فمنهم المصري، والتونسي، والسوري، والجزائري، واللبناني[4]، الذين يبثون سمومهم في أوساط المثقفين والمراكز العلمية،

---

(١) القس دي روزا، التاريخ الأسود للكنيسة، ترجمة: آسر حطيبة (ص١٥٣-١٦١) الدار المصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م؛ وعدنان علي رضا النحوي، الحداثة من منظور إيماني (ص٤٦).

(٢) أمثال مارتن لوثر، وباروخ سبينوزا، وإمانويل كانت، وشلاير ماخر، وفلهلم دلتاي، ومارتن هيدغر، وهانز جورج غادامير، وغيرهم.

(٣) عدنان علي رضا النحوي، الحداثة من منظور إيماني (ص٤٣).

(٤) **رواد التيار الحداثي العرب منهم**: المصري كحسن حنفي، ونصر أبو زيد، ومحمد أحمد خلف الله، ومحمود أبو رية، وسيد القمني، والتونسي كعبد المجيد الشرفي، وحمادي ذويب، والسوري كمحمد شحرور، وطيب تيزيني، وصادق جلال العظم، والجزائري كمحمد أركون، واللبناني كعلي حرب، وغيرهم.

فضلًا عن اهتمامهم بالوصول إلى مراكز صناعة القرار واتخاذه، بحيث يؤثرون في المجتمع من قاعدته إلى قمته.

فانتقلت الفكرة الحداثية للعالم الإسلامي؛ وهي تحمل خارطة طريق لتغيير معتقدات وعادات المسلمين، ولتُجهز على القرآن الكريم باعتباره الناطق باسم الإسلام، وعلى السنة النبوية والتراث الديني كله.

والطريقة التي انتقلت من خلالها يمكن تلخيصها في الحركة الاستشراقية التي جمعت مجموعة من علماء الغرب للعكوف على دراسة علوم الإسلام كالتفسير والحديث والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي واللغة العربية، نظرًا للدوافع الدينية والسياسية التي شجعت على هذه الدراسات الشرقية[1]، كما ساهمت البعثات التعليمية التي أُرسلت من الشرق إلى الغرب في تسهيل هذه المهمة الانتقالية للفكر الحداثي، حيث رجع المبتعثون بأفكارغريبة نشروها بين المسلمين، وكانت بداية التكوين لنواة الفكر الحداثي الذي نما وترعرع في المجتمع الإسلامي على مناهج الغرب النقدية، وسقي بماء الكراهية للإسلام.

المنظور الحداثي للدين الإسلامي:

إن رواد التيار الحداثي ينطلقون في منظورهم للدين الإسلامي من قاعدة التمرد على الإسلام؛ ظنًا منهم أنه لا يصلح لضبط حياة الناس ولا يستطيع أن يقودهم نحو الأفضل.

وهذا ما دفع حداثي منهم لوصف العقل الإسلامي بأنه رجعي ومتخلف يركن إلى القديم، ولا يريد أن يتجاوز هذه المرحلة من عمر الزمن إلى آفاق التقدم الأوروبي؛ لهذا طرح تساؤلًا مفاده: لماذا نهضت أوروبا وتخلّف المسلمون؟ ليجيب هو عن نفسه قائلًا: «لأن أوروبا تركت هذه الأسئلة المتعلقة بفكرة الله، وكيفية تصور العلاقة معه تجيء بشكل طبيعي تطلع إلى السطح: سطح الفكر والمناقشات الفلسفية؛ لأنها لم تكبت هذه الأسئلة كما فعلنا نحن ولم تقمعها، بل وصل الأمر بمفكريهم إلى حد التحدث عن موت الله»[2].

---

(١) مصطفى السباعي، الاستشراق والمُسْتَشرقون (ص١٩، ٢٠) دار الوراق، د.ت.

(٢) محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، ترجمة: هاشم صالح (ص٢٨٢) دار الطليعة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م.

إننا أمام تيار فكري لا يعترف بوجود الله أصلًا، وإنما اخترع نظرية موت المؤلف ليتعامل مع القرآن الكريم بقراءة معاصرة حسب فهم القارئ لا كما أراد الله تعالى، وهذا هو نفس الفكر الحداثي الغربي.

ويتهمون الإسلام بالأسطورية[1]، ويبالغون في ذلك فيزعمون أنه اكتسبها من "الأعراف العربية والوثنية والمسيحية واليهودية التي كانت سائدة في المرحلة السابقة عليه"[2]، كما يؤكدون أن الإسلام اعتمد على كثير من هذه التقاليد والأعراف الجاهلية في "أنماط السلوك الديني الجاهلي التي استمرت بحضور بارز في العهد الإسلامي الجديد، مثل: تقبيل الحجر الأسود والاهتمام به، والطواف حول الكعبة، وصوم عاشوراء، وذبح الأضاحي، والعمرة"[3].

لهذا فإن الإسلام من وجهة نظرهم عنوان للتخلف؛ لأنه "في الواقع أصبح الأيديولوجية الرسمية للقوى الرجعية المتخلفة في الوطن العربي وخارجه – السعودية، وأندونيسيا، والباكستان – والمرتبطة صراحة ومباشرة بالاستعمار الجديد الذي تقوده أمريكا، كما أن الدين المصدر الرئيسي لتبرير الأنظمة الملكية في الحكم؛ لأنه أفتى بأن حق الملوك نابع من السماء وليس من الأرض"[4]، وهذا محض افتراء فالخلافة الراشدة بعد النبي ﷺ لم تكن نظامًا ملكيًا يورّث كل خليفة ابنه من بعده، فلم يكونوا طُلّاب سلطة أبدًا، وإذا كانت الأنظمة الآن لا تسير وفق المنهجية التي أصّلها الإسلام وطبقها أهل الصدر الأول؛ فإن الخلل في التطبيق وليس في النظام الإسلامي.

---

(١) سيد القمني، الأسطورة والتراث (ص٢٤ وما بعدها) المركز المصري لبحوث الحضارة، القاهرة، ط٣، ١٩٩٩م. ومن ذلك انتقال أسطورة الخلق الموجودة في سفر التكوين إلى الفكر الإسلامي. راجع: القمني، الأسطورة والتراث (ص١٩٩).

(٢) طيب تيزيني، مقدمات أولية في الإسلام المحمدي الباكر نشأة وتأسيسًا (ص٢٢٦) مطبعة جوهر الشام، دمشق، سورية، ط١، ١٩٩٤م.

(٣) طيب تيزيني، مقدمات أولية (ص١٥٤).

(٤) صادق جلال العظم، نقد الفكر الديني (ص١٦، ١٧) دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط٩، ٢٠٠٣م.

نظرة الحداثيين للقرآن الكريم:

تعامل الحداثيون العرب مع القرآن الكريم على أنه خطاب بشري، حيث استبعد أحدهم أن يكون وحيًا من عند الله، وعلته في ذلك لزوم عجز البشر بمناهجهم عن فهم آياته[1]، وأكد على أن النص القرآني "في حقيقته وجوهره منتج ثقافي، والمقصود بذلك أنه تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عاما"[2]، كما وصف أصحاب هذا الاتجاه القرآن الكريم بأنه "نصٌ ذو بنية أسطورية"[3]، أي مليء بالخرافات، وإذا كان هذا هو حال القرآن، فلا بد من إخضاعه لأدوات النقد الغربية الحديثة[4]، والهدف الأساس هو نزع قداسته والتحرر من سلطته، لهذا كان مرتكز دعوتهم "التحرر من سلطة النصوص، التي هي في حقيقتها دعوة إلى التحرر من السلطة المطلقة، والمرجعية الشاملة للفكر الذي يمارس القمع والهيمنة والسيطرة"[5]، ومقصودهم من ذلك التحرر من سلطة القرآن الكريم والسنة النبوية.

موقف الحداثيين من السنة النبوية:

قبل الشروع في بيان موقف التيار الحداثي من السنة النبوية، لابد من تحديد مفهوم مصطلح السنة في اللغة والاصطلاح، حتى يتسنى لنا الانطلاق من أرض ثابتة، نتعرف من خلالها على نظرة الحداثيين للتراث النبوي كله.

فالسنّة في اللغة تعني: "الطريقة والسيرة حميدة كانت أو ذميمة، والجمع: سُنَن"[6]، ومنه قول النبي ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ**

(١) نصر أبو زيد، نقد الخطاب الديني (ص٢٠٦) سينا للنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤م.

(٢) نصر أبو زيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن (ص٢٧) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م.

(٣) علي حرب، نقد النص، المركز الثقافي العربي (ص٢١١) الدار البيضاء، المغرب، ط٤، ٢٠٠٥م.

(٤) أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ترجمة: هاشم صالح (ص٢٠٣) دار الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٦م.

(٥) نصر أبو زيد، الإمام الشافعي وتأسيس الأيدلوجية الوسطية (ص١٥) مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م.

(٦) أحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير، تحقيق: د/ عبد العظيم الشناوي، مادة (سَنَن) (ص٢٩٢) دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٧م؛ والمعجم الوسيط، مادة (سَنَن) (ص٤٥٦).

أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[1]، وكذلك: «**سنة الله: حُكْمُه في خليقته، وسنة الرسول ﷺ ما ينسب إليه من قول أو فعل أو تقرير**»[2].

وقد استعملها الإسلام في معناها اللغوي ثم خصصها بطريقة النبي ﷺ، وظل الاستعمال القديم للكلمة في نطاق ضيّق، ولم تكن مصطلحًا وثنيًا في يوم من الأيام، ولا قصد بها عند المسلمين عرف المجتمع[3]، فهي بهذا المفهوم تطلق على الطريقة والسيرة والعادة.

أما السنة في اصطلاح أهل الشرع، فتطلق تارة على ما يقابل القرآن، لحديث «**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء، فأعلمهم بالسنة**»[4]، وتارة تطلق على ما يقابل الفرض، وأخرى على ما يقابل البدعة[5]، لكنها في اصطلاح المحدّثين: ما أُثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلْقية أو خُلُقية[6]، وهذا التعريف مرادف للحديث النبوي.

وإذا نظرنا إلى موقف الحداثيين من السنة النبوية فإن الكلام سوف ينتظم حول المباحث الآتية:

*****

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة (ص٣١٠) برقم (٢٣٥١) دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط٢، ٢٠٠٠م.

(٢) المعجم الوسيط، مادة (سَنَن) (ص٤٥٦).

(٣) محمد مصطفى الأعظمي، دراسات في الحديث النبوي (ص١١) المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٠م.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: من أحق بالإمامة (ص٢٧١) برقم (١٥٣٢) دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط٢، ٢٠٠٠م.

(٥) ابن النجار، شرح الكوكب المنير، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد (٢/ ١٦٠) مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية ١٩٩٣م.

(٦) محمد جمال الدين القاسمي، قواعد التحديث، تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى (٢/ ٨٥) مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٤م.

المبحث الأول

الرسول ﷺ في الفكر الحداثي

المتصفح لكتابات الحداثيين في اعتقادهم عن الرسول ﷺ، يجد أنه اتصف عندهم بصفات تخالف نصوص القرآن الكريم واعتقاد المسلمين؛ لهذا ومن باب الإنصاف سوف أنقل هنا ما كتبه الحداثيون مجردًا لأقوم بالرد عليه.

نبدأ بما قاله الحداثي الشيعي سيد القمني[1] من أن الرسول ﷺ "مجرد حامل للرسالة ليس أكثر، فلا هو رب ولا هو ملك، ولا هو معصوم عن بشريته؛ لأن المعصوم هو الكمال الإلهي وحده، ومع ذلك أعطاه المسلمون أعلى صفات الألوهية وهي العصمة والكمال، وهو يناقض تاريخ جدل الوحي مع الواقع، وتدخله الدائب لإصلاح مسار أو قرارات أو مواقف أو تشريعات أخطأ فيها النبي ببشريته وفطرته، فالنبي محمد في صحيح إسلامنا هو عبد من عباد الرحمن ونبي كريم، أدى رسالة ربه تامة كاملة صافية بيضاء نقية"[2].

كما يعتقد حسن حنفي في الرسول ﷺ أنه "مجرد مبلغ للوحي، كان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ابن امرأة كانت تأكل القديد، رسول قد خلت من قبله الرسل، لا يقوم بالمعجزات في حياته أو بعد مماته، ولادته ومماته مثل سائر البشر"[3].

---

(١) **سيد القمني**: باحث مصري ولد في ١٣مارس١٩٤٧م، وانتهج الوجهة الماركسية. **ومن أشهر كتبه**: شكرًا بن لادن؛ وانتكاسة المسلمين إلى الوثنية؛ والأسطورة والتراث. انظر: سليمان بن صالح الخراشي، نظرات شرعية في فكر منحرف (١/ ١٢١) روافد للطباعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.

(٢) سيد القمني، انتكاسة المسلمين إلى الوثنية (ص١٥) الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.

(٣) حسن حنفي، دراسات فلسفية (ص١٠٥). **وحسن حنفي**: مصريّ المولد، حيث ولد عام ١٩٣٥م، ونال درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة السوربون. **ومن مؤلفاته**: التراث والتجديد موقفنا من التراث القديمة؛ وقضايا معاصرة؛ ودراسات إسلامية؛ ودراسات فلسفية، انظر: فهد بن محمد القرشي، منهج حسن حنفي (ص٢٩، ٣٢، ٤٣) مجلة البيان، الرياض، السعودية، ط١، ١٤٣٤هـ.

وتعمد أركون[1] أن يضيف بعدًا عن النبي ﷺ وكأنه ينتقد محبيه بالمبالغة في حبه حيث قال: «نلاحظ أن شخصية محمد تظل مقصودة ضمنيًا من خلال الأوصاف والتشخيصات، أو على الأقل تظل معنية ببعضها، ولكن نظريته تبقى تقليدية في خطوطها العريضة؛ فهي تستعيد تلك التفسيرات الشائعة على يد أدبيات واسعة كانت منتشرة في ذلك الحين، وهي تفسيرات كانت تهدف إلى دمج الظاهرة النبوية في الحتمية الكونية – أي: إلى اعتبار ظهور النبي بمثابة قانون حتمي في التاريخ – وذلك لأن ظهور النبي وتركيبته النفسية وممارسته التاريخية هي أشياء مرتبطة بأحوال الفلك العلوي وبالفيض»[2]، ولم يجد بُدًّا أن يعتبر ظهور النبي ﷺ من الأمور البدهية في التاريخ الإنساني؛ لارتباطها بأحوال الفلك لا باستقامة أحوال وأفكار الناس، وتعبيدهم لله رب العالمين، وهذا حداثي آخر يرى أن شخصية النبي ﷺ متناقضة فيقول: «لعل محمدًا واحدٌ من أكثر الشخصيات التاريخية إثارة للحوار والخلاف والتناقض»[3].

و**نخلص** إلى أن المدرسة الحداثية أجمعوا أمرهم في أن محمدًا ﷺ مجرد حامل ومبلغ للرسالة، وليس معصومًا ولا مؤيدًا بالمعجزات، وإنما هو شخصية عادية ولادته ومماته مثل سائر البشر، يتمتع بالذكاء الاجتماعي، لكنّ تفكيره تقليديًا متناقضًا، بالغ أتباعه في حبه.

وإذا تأملنا كلام الحداثيين وجدنا اتفاقهم في أن الرسول ﷺ مجرد حامل ومبلغ للرسالة ليس أكثر، فلا هو رب ولا هو ملك، ومقصدهم في ذلك التشكيك في نسبة السنة النبوية، وإفقادها مصدريتها التشريعية كونها المصدر الثاني للتشريع، ثم نجد هذا التيار يضرب في شخص النبي ﷺ زاعمًا عدم عصمته، لكنهم بسبب جهلهم لا يدركون أن عصمة الأنبياء تعني "حفظ الله لهم أولًا بما خصّهم به من صفاء

---

(١) **محمد أركون**: مفكر جزائري من مواليد ١٩٢٨م، تلقى دراسته الثانوية في وهران، ثم أتم أتمها بباريس، وحصل على الدكتوراه من السربون سنة ١٩٦٩م حول الإنسية العربية في القرن الرابع الهجري. **ومن مؤلفاته**: نحو نقد العقل الإسلامي. توفي عام ٢٠١٠م. انظر: سليمان بن صالح الخراشي، نظرات شرعية في فكر منحرف (١/ ٥٥١).

(٢) أركون، نزعة الأنسنة في الفكر العربي، ترجمة: هاشم صالح (ص٥٤٢) دار الساقي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م.

(٣) طيب تيزيني، مقدمات أولية (ص١٥٥).

الجوهر، ثم بما أولاهم من من الفضائل الجسميّة، ثم بالنصرة وتثبيت أقدامهم، ثم بإنزال السكينة عليهم وحفظ قلوبهم وتوفيقهم"[1].

ولعل عامل الخلط عندهم هو عدم تفريقهم بين عصمة الأنبياء في تَحمُّل الرسالة وتبليغها؛ حيث لا يكتمون شيئًا مما أوحاه الله إليهم فذلك من مقتضيات العصمة التي عناها الله تعالى بقوله للرسول ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، وبين عدم العصمة من الأعراض البشرية كالخوف، وهو من طبيعة البشر.

ومن أمثلة الخوف كما ذكر القرآن الكريم:

- خوف إبراهيم عليه السلام، كما في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٠].
- ومما يؤكد بشرية الرسل وخوفهم مما يخاف منه البشر، خوف موسى عليه السلام من حبال وعصي سحرة فرعون: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٧، ٦٨].

ولعلهم أيضًا لا يفرّقون بين عصمتهم من كبائر الذنوب وقبائح العيوب، كالزنى والسرقة والتي أجمع العلماء على عصمتهم منها، وبين صغائر الذنوب التي اختلف العلماء على عصمتهم من عدمها، والراجح عدم العصمة من الصغائر[2]، وقد "وقع الإجماع على عصمتهم بعد النبوة من تعمّد الكذب في الأحكام الشرعية؛ لدلالة المعجزة على صدقهم"[3].

---

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن (ص٤٥٧) دار القلم، دمشق، سورية، ط١، وطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية ٢٠١٧م.

(٢) عمر سليمان الأشقر، العقيدة في ضوء الكتاب والسنة (ص٧٧٢-٧٧٨) طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية، ٢٠١٦م.

(٣) محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق: سامي بن العربي (١/ ١٩٢) دار الفضيلة، الرياض، السعودية، ط١، ٢٠٠٠م.

أما قضية مبالغة المسلمين في عصمة النبي ﷺ وإعطائه صفة الألوهية، فهذا يكشف حقيقة جهل قائله، كما نرى في كلام حسن حنفي إساءة الأدب مع النبي ﷺ، حيث يجرده من المعجزات المؤيدة له، ويصفه بالشخصية العادية التي تساوي البشر في كل شيء، وهذه جرأة على القرآن الكريم الذي ميز النبي ﷺ عن سائر البشر بالوحي؛ ليُبلغ عن الله تعالى.

وكلامه هذا ناتج عن حقد مشوب بجهل، فنفي المعجزة عن النبي ﷺ كلام أبطله الواقع وأثبت كذبه، والقرآن الكريم الذي عجز فصحاء العرب وبلغائهم عن الإتيان بمثله، أو بعشر سور أو بسورة مثله، خير شاهد على صدق ما أقول.

وفي هذا السياق يقول صاحب كتاب الشفا: «اعلم أن تسميتنا ما جاءت به الأنبياء معجزة، هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها، وهي على ضربين؛ ضرب هو من نوع قدرة البشر فعجزوا عنه، فتعجيزهم عنه فعل لله دل على صدق نبيه؛ كصرفهم عن تمني الموت، وتعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن، وضرب هو خارج عن قدرته، فلم يقدروا على الإتيان بمثله؛ كإحياء الموتى، وقلب العصا حية، وإخراج ناقة من صخرة، ونبع الماء من الأصابع، وانشقاق القمر، مما لا يمكن أن يفعله أحد إلا الله، فكون ذلك على يد النبي ﷺ من فعل الله تعالى وتحديه من يكذبه أن يأتي بمثله تعجيز له»[1].

أما معجزات نبينا ﷺ كالقرآن الكريم والإسراء والمعراج، وحنين الجذع وانشقاق القمر، وغيرها فهي "من دلائل نبوته وبراهين صدقه، فهو أكثر الرسل معجزة، وأبهرهم آية وأظهرهم برهانًا"[2]، والنبي ﷺ مؤيد من الله تعالى بالمعجزات التي تحدى الله بها الناس.

ومسألة تناقض النبي ﷺ هذا محض افتراء من الحداثيين، وإلا فالتناقض في أذهانهم وخيالهم الذي ظهر في كتبهم.

---

(١) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى الرسول ﷺ، تحقيق: عبده علي كوشك (ص٣١٣) جائزة دبيّ الدولية للقرآن الكريم، وحدة البحوث والدراسات، الإمارات العربية المتحدة ٢٠١٣م.

(٢) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى الرسول ﷺ (ص٣١٣). وعن أنس بن مالك ﷺ أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: مناقب الأنصار، باب: انشقاق القمر (ص٧٩١) برقم (٣٨٦٨) دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط١، ١٩٩٧م.

وقضية المبالغة في حب النبي ﷺ لم تصل لدرجة الألوهية، وإنما حبنا له في إطار العبودية، ووفق ما أمرنا الله تعالى به، وبمعايير سبقت من جيل الصحابة رضوان الله عليهم.

*****

المبحث الثاني

مفهوم السنّة عند الحداثيين

أيقن التيار الحداثي أن القرآن الكريم لا يستغن عن السنة النبوية؛ إذ العلاقة بينهما وطيدة، فراحت أقلامهم تسكب ما انضوت عليه قلوبهم في صفحات سطروها بمداد الحقد، وغايتهم في ذلك الطعن فيها والنقد لنصوصها.

وإذا تصفحنا هذه الصفحات؛ فإننا نرى أن السنة في مفهومهم لها مدلول واسع؛ بغرض التلبيس على الناس والتَعْمِيَة عليهم، فقد قال أحدهم: «نجد أن كلمة سنة مستخدمة في القرآن من خلال ربطها بالله تعني طريقة الله المعتادة في التصرف تجاه الشعوب التي بقيت مصرة على ضلالها على الرغم من أنه قد أرسل لها أنبياء؛ لكي ينقلوا إليها الوحي ويهدوها»[1].

وإن كان الكلام صحيحًا، إلا أنه مقدمةً يدس من خلالها السم في العسل ويخلط المفاهيم؛ ليصل على الهدف المنشود، حيث يقول: «ولكن كلمة السنة بشكل عام الأعراف المتبعة من قبل جماعة بشرية معينة؛ لهذا السبب نجد أن السنة التي ابتكرها محمد راحت تفرض نفسها بصعوبة، وبالتدرج ضد الأعراف والعادات المحلية السائدة في الجزيرة العربية»[2].

(١) محمد أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية (ص٢٢).

(٢) السابق.

وبيت القصيد في كلامه هو وصفه للسنة بأنها من ابتكار واختراع النبي ﷺ، وهذا يؤكد إنكاره الصريح لقول الله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

كما يؤكد خرقه لإجماع المفسرين في أن المخاطب بهذه الآيات قريشًا، والمقصود بالصاحب هو محمد ﷺ الذي لا ينطق عن هوى نفسه ورأيه، إن هو إلا وحي من عند الله يوحى إليه[١]، ولجهله لا يعلم أن سر التعبير بالصاحب لقريش "إيذانًا بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة، وإحاطتهم خبرًا ببراءته"[٢]، كما أن "تنزيهه ﷺ عن النطق عن هوى يقتضي التنزيه عن أن يفعل أو يحكم عن هوى أيضًا؛ لأن التنزه عن النطق عن هوى أعظم مراتب الحكمة"[٣].

لكن أصحاب هذا الاتجاه الحداثي لهم تأويل آخر للآيات، حيث يرى محمد شحرور[٤] أن "الاستناد بها لا مسَوّغ له البتة هنا، فالضمير (هو) لا يعود إلى النبي ﷺ؛ وإنما يعود بوضوح وحصرًا إلى الكتاب المنزل، ولا علاقة هنا بالضمير قبله المستتر في الفعل (ينطق) العائد إلى النبي ﷺ، والذي كان من صفاته أنه لم يكن ليتحكم فيه وفي أقواله وفي أفعاله الهوى وتقلبات النفس، الأمر الذي يجعله في مرتبة رفيعة حقًا هي مرتبة النبوة، لكن دون أن يجعل أقوال وأفعال النبي كلها من صنف الوحي على كل حال، ثم إن هذه الآية ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ جاءت في مكة في مرحلة كان العرب يشككون في الوحي نفسه"[٥].

---

(١) أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض (٨/ ١٥٥) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣م.

(٢) الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٢٧/ ٤٥) دار التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت.

(٣) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢٧/ ٩٣) الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤م.

(٤) **محمد شحرور**: باحث سوري ولد عام ١٩٣٨م، تلقى مراحل تعليمه الأولى في دمشق، ثم سافر بعدها إلى الاتحاد السوفيتي لدراسة الهندسة المدنية، ثم حصل بعدها على الماجستير والدكتوراة من الجامعة الأيرلندية بين عامي (١٩٧٠–١٩٨٠م). له كتب في تجديد الفكر والقراءة المعاصرة، كالقصص القرآني قراءة معاصرة بطبعة الدار التونسية للنشر. انظر: نظرات شرعية (٣/ ١٩١).

(٥) محمد شحرور، الكتاب والقرآن قراءة معاصرة (ص٥٤٥) الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، سورية، د.ت.

لكني أتساءل مَن الذي قال إن الضمير في قول الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ يعود إلى النبي ﷺ؟ إن عود الضمير في الآية على السنّة والقرآن معًا، وهذا ما أشار إليه صاحب تفسير روح المعاني بقوله: «أي ما الذي ينطق به من ذلك أو القرآن، وكل ذلك مفهوم من السياق إلا وحي من الله ﷻ»[1]، لكن ما يعتمل في صدور الحداثيين يظهر في كتاباتهم بمداد يقطر حقدًا وحنقًا على الإسلام وأهله، ويثبت بما لا يدع مجالًا للشك جهل هذا التيار؛ لأن السياق القرآني من أول سورة النجم يتحدث عن النبي ﷺ، وعن كلامه الذي ينطق به؛ سواء كان قرآنًا أو سنة.

هكذا يحاول رواد الحداثة العرب التأكيد على أن السنة النبوية ليست وحيًا من عند الله تعالى، وإنما من نسج خيال النبي ﷺ، بدليل أن العرب الذين عاصروه شكوا في ذلك، ثم يأتي من قائمة الحداثيين من يدلي بدلوه، حيث ناقش الشرفي مفهوم السنة باعتبارها مكونًا رئيسًا من مكونات العلوم الإسلامية فأشار إلى أنها والحديث مدلولان متقاربان، وغالبًا ما يأتيان بمعنى واحد، حيث "يستعمل أحدهما مكان الآخر، ويقصد منهما أقوال الرسول وأفعاله وإقراراته، كما أثبتتها مجاميع الحديث المتعمدة لدى أهل السنة والمدونة في القرن الثالث الهجري"[2].

وهذا الكلام وإن كان ساقه من باب النقد وعدم التسليم، إلا أن طرحه لم يسلم من اعتراض شحرور على هذا المفهوم حيث قال: «يأتي التعريف الخاطئ برأينا للسنة النبوية؛ بأنها كل ما صدر عن النبي ﷺ من قول ومن فعل أو أمر أو نهي أو إقرار، علمًا بأن هذا التعريف للسنة ليس تعريف النبي نفسه؛ وبالتالي فهو قابل للنقاش والأخذ والرد، وهذا التعريف كان سببًا في تخنيط الإسلام، ومعلوم أن النبي ﷺ وصحابته لم يعرفوا السنة بهذا الشكل»[3].

واعتراض شحرور على ما أجمع عليه العلماء نوع الشطط الفكري؛ الذي ظن معه هو نفسه العصمة من الذلل، ضاربًا بهذا الإجماع عرض الحائط، ليضع تصورًا لمفهوم السنة قائلًا: «هي منهج في تطبيق أحكام

---

(١) الألوسي، روح المعاني (٢٧/ ٤٦).

(٢) الشرفي، الإسلام بين الرسالة والتاريخ (ص١٧٦) دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٨م.

(٣) محمد شحرور، الكتاب والقرآن (ص٥٤٨).

أم الكتاب بسهولة ويسر؛ دون الخروج عن حدود الله في أمور الحدود أو وضع حدود عرفية مرحلية في بقية الأمور، مع الأخذ بعين الاعتبار عالم الحقيقة (الزمان والمكان والشروط الموضوعية التي تطبق فيها هذه الأحكام)»[1].

وفي هذا التصور من الاضطراب والخلط ما قرره العلماء حيث أكدوا أن شحرور أتى بجزء من التعريف الاصطلاحي، ثم بجزء من التعريف اللغوي ثم أتم التعريف بما تبقى من التعريف الاصطلاحي، وهذا يمثل تشويهًا للسنة النبوية واتهامًا للقرآن الكريم، بأن أحكامه تتسم بالقسوة التي تحتاج إلى تسهيل[2]، وراح قلم شحرور يستطرد متناقضًا مع رفقاء الحداثة الذين أنكروا الوحي، حيث كتب: «ما اصطلح على تسميته بالسنة النبوية إنما هو حياة النبي ﷺ كنبي وكائن إنساني عاش حياته في الواقع، بل في الصميم منه وليس في عالم الوهم، فهو ﷺ إلى جانب عنصر الوحي الذي كرمه الله به، عاش حياته في القرن السابع الميلادي في شبه جزيرة العرب بكل ما كان يحيط بها من ظروف جغرافية وتاريخية وثقافية وسياسية[3]، لكنه أراد أن ينتصر لتصوره عن السنة.

لهذا حاول الحداثيون استخدم أسلحتهم ليثبتوا أن لفظ السنة مستحدث بعد عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين، أكد على هذا المعنى أحدهم قائلًا: «وفي الحالة الراهنة لمعلوماتنا والوثائق التي نمتلكها نجد أن أول استخدام لتعبير سنة النبي لم يحصل إلا عام (٨٠هـ/ ٧٠٠ م)، وذلك قبل الخليفة المشهور عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ/ ٧١٧م)، وسوف يتم اجتياز خطوة أخرى مع الشافعي (٢٠٤/ ٣٢٠)، الذي فرض السنة بكونها مجموعة الأحاديث النبوية الصحيحة»[4]، وهذا الكلام يجانب الصواب، فلفظ السنة ورد في أحاديث النبي ﷺ كما بينت آنفًا في حديث: «**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله**».

---

(١) محمد شحرور، الكتاب والقرآن (ص٥٤٩).

(٢) عمار عبد الكريم عبد المجيد، الانحراف المعاصر في تفسير القرآن الكريم، وحدة البحوث والدراسات لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط١، ٢٠١٦م.

(٣) محمد شحرور، الكتاب والقرآن (ص٥٤٩).

(٤) محمد أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية (ص٢٢).

وما أحب أن أوكده هنا أن معظم رواد هذا الاتجاه لا يألون جهدًا في محاولات مستمرة، وبخطة ممنهجة تبدأ بزرع لغم تشويه مفهوم السنة النبوية، فهم يقومون بأدوار ربما يؤيد أحدهم فكرة ليأتي الآخر منتقدًا لها؛ ليَثبُت في النهاية الطعن المقدم من الأخير ويعتقده المؤيد، فنقد السنة هو الهدف الذي يسعى إليه التيار الحداثي، وهو ما أفصح عنه صاحب كتاب (الكتاب والقرآن) حيث قال:

- الأحاديث النبوية ليس لها علاقة بالحلال والحرام.
- يجب إعادة النظر في تنقيح الأحاديث المتعلقة بالغيبيات على ضوء الفهم الحديث للقرآن.
- يجب اعتبار كل الأحاديث المتعلقة بالحلال والحرام والحدود؛ التي لم يرد فيها نص في الكتاب على أنها أحاديث مرحلية؛ مثل الغناء والموسيقى والتصوير، واعتبارها أحاديث قيلت في حينها حسب الظروف السائدة.
- علينا أيضًا اعتبار كل أحاديث الغيبيات التي لا تنطبق مع القرآن، مثل عذاب القبر والروح على أنها سر الحياة؛ أحاديث ضعيفة أو موضوعة ولا نأخذ بها[1].

ونخلص إلى أن ما درت حوله كتاباتهم لبيان مفهوم السنة، يؤكد على عدة مفاهيم أساسية في اعتقادهم، فهي عندهم ليست وحيًا؛ بل من ابتكار محمد ﷺ، وأنها مصطلح مستحدث بعده ﷺ، كما أنها اجتهاد بشري تقتصر على أوامر ونواهي، وليس لها علاقة بالتحريم، لهذا اخترعوا تصورًا لمفهومها يخالف التعريف الذي قرره العلماء؛ بحجة أن النبي ﷺ لم يعرفها، وهذا الذي ذهبوا إليه في مفهوم السنة ساقط، ولا يرقي أن نرد عليه.

*****

(١) محمد شحرور، الكتاب والقرآن (ص٥٧١، ٥٧٢).

المبحث الثالث

تدويـــن السنَّـــة النبويَّـــة

يجدر بنا أن نحدد معنى كلمة التدوين، حيث أن تحرير المصطلح يضبط مسار البحث، ويضمن أرضية مشتركة بين الفرقاء، وإذا بحثنا في معاجم اللغة وجدنا كلمة التدوين تدور حول معنى الجمع، فهي مشتقة من "(دَوّنَ) الديوان أنشأه وجمعه، ودَوّنَ الحديث، جمعه ورتبه"[1]، والمعنى اللغوي يثبت أن التدوين جمع وترتيب، لهذا فقد استنبط أحد الكتاب مفهومًا اصطلاحيًا؛ حيث قال هو: «جمع بعض المعلومات في فرع من فروع العلم والمعرفة، وكتابتها في كتب وسجلات»[2]، والمعنى الذي قصده الحداثيون هو كتابة الحديث، والمعنى الصحيح للتدوين كما دلت عليه معاجم اللغة هو الجمع والترتيب وهو أعم من الكتابة.

الحداثيون يزعمون تأخر تدوين السنة:

قرر أصحاب التيار الحداثي هذه المرة أن يتخذوا حيلة أخرى لضرب السنة النبوية، فادعوا تأخر تدوينها، سعيًا منهم لفقدان الثقة فيها؛ فأكد صاحب كتاب أضواء على السنة المحمدية أن "كتابة الحديث لم تقع إلا في القرن الثاني، أي: بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى بأكثر من مائة سنة، ولم يكن ذلك بدافع من الرواة، وإنما بوازع من الولاة، إذ كانوا يتحرجون من كتابته خشية أن يقعوا فيما نهى النبي عنه"[3].

ويرى بعضهم أن علة التدوين بعد قرن من الزمان كان "بسبب سياسي بحت، تولد عنه منطلق فكري عقائدي بعد سقوط دولة الخلفاء الراشدين وظهور الدولة الأموية، ظهرت فِرَق في الإسلام كلها ذات منشأ سياسي"[4]، وهذه الفِرَق "كانت بحاجة إلى أرضية فكرية عقائدية لكي تكسب المؤيدين وتحافظ على استمراريتها مع الزمن، فكان الاعتماد على الحديث هو المرجع الفكري لهذه الفرق السياسية"[5]، وهذا

---

(١) مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز (ص٢٤٠) دار التحرير للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٨٩م.

(٢) أحمد سعد العش، تدوين السنة النبوية (ص١٣) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٧١م.

(٣) محمود أبو رية، أضواء على السنة المحمدية (ص٩) دار المعارف، القاهرة، ط٦، ١٩٩٤م.

(٤) محمد شحرور، الكتاب والقرآن (ص٥٦٦).

(٥) محمد شحرور، الكتاب والقرآن (ص٥٦٩).

ما جعل أحد مفكريهم يقول: "بسبب الصراعات السياسية التي واكبت جمع الحديث؛ أصبح من الصعب الوصول إلى النص الحديثي الأصلي"[1].

وأراد أحدهم أن يُشوِّه عملية التدوين فقال: «ولقد كانت بدايات تدوين الحديث متزامنة وتدوين سائر العلوم والمعارف"[2]، والخطر في هذا الكلام هو الكذب على النبي ﷺ وافتراء عدم تدوين السنة في عهده ولا في عهد صحابته الكرام، وكذلك الإشارة إلى اختلاط جمع الحديث بغيره من العلوم؛ لهذا يقول الشرفي: «إن شأن الحديث لعجيب حقًا فلقد احتفظ هو ذاته بما يفيد نهي الرسول ﷺ عن تدوينه، وأمْرَه بألا يُكتب عنه سوى القرآن، أي: بما ينسف مشروعه من الأساس»[3].

واستدلوا بحديث النبي ﷺ: «**لا تكتبوا عنّي ومن كتب عنِّي غير القرآن فلْيَمْحُه**»[4]، وأضاف الشرفي قائلًا: «ولا شك أن الجيل الأول من المسلمين قد التزم التزامًا كاملًا بذلك النهي عن كتابة الأقوال التي كانوا شاهدين عليها، وأن الأشخاص القلائل الذين دونوا عن الصحابة في صحائف منثورة ما سمعوه مشافهة كانوا يرغبون في الاحتفاظ بما بلغهم لأنفسهم على سبيل التبرك»[5].

وعلل صاحب الانتكاسة سر تأخر التدوين قائلًا: «وقد خشي النبي أيّ قدسية قد تلحقه شخصيًا إذا ما حفظ المسلمون حديثه إلى جوار القرآن كلمة الله التامّة، ، ورغم ذلك سمح المسلمون بالتدوين عن نبي نهاهم عنه، وما نطق عن هوى، بل واختلاق الأحاديث المكذوبة ونسبتها إليه»[6].

وتحت عنوان النهي عن كتابة الحديث جاء ما نصه: " كان رسول الله ﷺ مبينًا ومفسرًا للقرآن بفعله وقوله، ولكنّ أقواله في هذا البيان أو في غيره لم تحفظ بالكتابة كما حفظ القرآن، فقد تضافرت الأدلة النقلية الوثيقة، وتواتر العمل الثابت الصحيح على أن أحاديث الرسول ﷺ لم تكتب في عهده كما كان يكتب القرآن،

---

(١) طيب تيزيني، النص القرآني (٥/ ٦٥) دار الينابيع، دمشق، سورية ١٩٩٧م.

(٢) الشرفي، الإسلام والحداثة (ص١٧٧).

(٣) الشرفي، الإسلام بين الرسالة والتاريخ (ص١٧٦، ١٧٧).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الزهد والرقائق، باب: التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم (ص٢٢٩٨) برقم (٣٠٠٤).

(٥) الشرفي، الإسلام بين الرسالة والتاريخ (ص١٧٧).

(٦) القمني، انتكاسة المسلمين إلى الوثنية (ص١٥).

ولا كان لها كتّاب يقيدونها عند سماعها منه وتلفظه بها، كما كان للقرآن كتّاب معروفون يقيّدون آياته عند نزولها"[1].

وخلاصة موقف الحداثيون من تدوين السنة ما يلي:

١- تدوين السنة النبوية كان بعد موت النبي ﷺ بأكثر من مائة سنة لضرورة سياسية.

٢- ورود النهي عن كتابة الحديث ينسف مشروع التدوين.

٣- سبب نهي النبي عن تدوين السنة خوفه من تقديس شخصه إذا حفظ كلامه مع كلام الله.

٤- التزام الجيل الأول بنهي النبي ﷺ، حيث لم يكن لها كتّاب كما كان للقرآن الكريم، أما تدوين البعض في صحائف كانت خاصة لأنفسهم على سبيل التبرك.

٥- مخالفة المسلمين لنهي النبي والكذب عليه من خلال أحاديث نسبوها إليه.

٦- تأخر التدوين حتى فُقِدَ النص الأصلي للحديث، واختلط مع سائر العلوم التي تزامنت معه في التدوين.

هذه خلاصة ما كتبته أقلامهم وما تخفي صدورهم أكبر، وكل ما أدلوا به كان مستندهم فيه نهي النبي ﷺ في حديث «**لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه**»، لو أمعنوا النظر فيه لعلموا أن النبي ﷺ قد نهى عن كتابة الحديث حتى لا يختلط بالقرآن الكريم، ولم يكن خوفًا من التقديس لشخص الرسول ﷺ، وقد يُحمل هذا المنع من الكتابة على أن "كلامه ﷺ كان موجهًا إلى عامة أصحابه، وفيهم الثقة والأوثق، والصالح والأصلح، والضابط والأشد ضبطًا، والحافظ والأمتن حفظًا، وأذن في الوقت نفسه لبعض أفرادهم إذنًا خاصًا؛ لتظاهر الكتابة الحفظ إن كانوا ضابطين، أو تساعدهم على زيادة الضبط إن خيف نسيانهم ولم يوثق بحفظهم، فكان إذنه لهؤلاء وأولئك أشبه بالاستثناء الذي خص به عليه السلام نفرًا من أصحابه، لأسباب وجيهة قدر أهميتها تبعًا للظروف والأشخاص"[2].

ثم أمر بكتابته بعد ذلك في حياته، والأدلة على التدوين في عصر النبوة كثيرة، منها:

---

(١) محمود أبو رية، أضواء على السنة المحمدية (ص١٩).

(٢) صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه (عرض ودراسة) (ص٢١، ٢٢) دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط١٥، ١٩٨٤م.

- أنّ النبي ﷺ أمر بالكتابة لرجل يمني يدعى (أبي شاه) لا يستطيع حفظ الأحاديث فطلب أن تكتب له، حيث قال ﷺ: «**اكتبوا لأبي شاه**»[1].

- بل إن النبي ﷺ "كتب إلى أهل اليمن بكتاب فيه الفرائض والسنن والديّات"[2].

- وكذلك حديث ابن عباس ﷺ، حيث قال: لمّا اشتد بالنبي ﷺ وجعه، قال: «**ائْتُونِي بِكِتَاب أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لاَ تَضِلُّوا بَعْدِه**»[3]، وفيه دلالة على أهمية تدوين وصايا النبي ﷺ، إذ لو كان فيها حرج لما طلب ﷺ أن يسجلها كتابة.

- ومن ذلك أيضًا قول أبي هريرة ﷺ: «ما من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثًا عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب»[4]، وفيه تصريح بأنهم كانوا يكتبون الحديث في حضرة النبي ﷺ، ولم يثبت اعتراضه على فعل الصحابة الكرام.

- وقول عبد الله بن عمرو: «مَا يُرَغِّبُنِي فِي الْحَيَاةِ إِلَّا الصَّادِقَةُ وَالْوَهْطُ، فَأَمَّا الصَّادِقَةُ، فَصَحِيفَةٌ كَتَبْتُهَا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، وَأَمَّا الْوَهْطُ، فَأَرْضٌ تَصَدَّقَ بِهَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ﷺ كَانَ يَقُومُ عَلَيْهَا»[5].

- أما ما كان لبعض الصحابة من صحف كتبوها بأيديهم سماعًا من فم النبي ﷺ مباشرة[6]، فلم يكن على سبيل التبرك كما ادعى الشرفي، ولا كانت لأنفسهم بل كانت بغرض الحفظ والعمل والبلاغ، وإلا لما علموها لأصحابهم، والأمثلة على ذلك مبثوثة في الصحاح، ومن ذلك:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: اللقطة، باب: كيف تعرف لقطة أهل مكة (ص٤٨١) برقم (٢٤٣٤).

(٢) رواه النسائي في السنن، كتاب: القسامة (٧/ ٢٠٤) برقم (٧٢٢٩) تحقيق: مركز البحوث وتقنية المعلومات، دار التأصيل، القاهرة، وطبعة وزارة الأوقاف القطرية، ط١، ٢٠١٢م.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: العلم، باب: كتابة العلم (ص٣٠) برقم (١١٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: العلم، باب: كتابة العلم (ص٣٠) برقم (١١٣).

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١٥٨-٢٢٦).

(٦) محمد مطر الزهراني، تدوين السنة النبوية نشأته وتطوره (ص٢٩) دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط١، ١٩٩٦م.

- صحيفة أبي بكر الصديق ﷺ فعن أنس بن مالك ﷺ أن أبا بكر كتب له هذا الكتاب لمّا وجهه إلى البحرين: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذه فريضة الصدقة التي فرض رسول الله ﷺ على المسلمين، والتي أمر الله بها رسوله...»[1].

- وما كتبه الصحابي عبد الله بن أبي أوفى، فعن سالم أَبِي النضر، مولى عمر بْن عبيد الله، وكان كاتِبَهُ، قال: كتب إليه عَبْد الله بْن أَبِي أوفى، أن رَسُول الله ﷺ قال: «**واعلموا أن الجنّة تحْت ظِلالِ السُّيُوف**»[2].

- وعن سالم أَبِي النضر أيضًا، أنّ عبد الله بن أبي أوفى كتب: فقرأته أن رَسُول الله ﷺ قال: «**إذا لقيتموهم فاصبروا**»[3]، وفي الحديثين السابقين دلالة على أن بعض الصحابة كانت لهم صحائف خاصة بهم، لا شك أنها كانت النواة لمشروع جمعي كبير بتصريح من النبي ﷺ.

وحين طلب عامر بن سعد بن أبي وقاص من جابر بن سمرة أن يخبره بشيء سمعه من رسول الله ﷺ، كتب إليه أنه ﷺ يقول: «**لا يزال الدين قائمًا حتى تقوم الساعة**»[4]، وفي هذا ما يدل على كتابة السنة النبوية وليعلم هؤلاء أن الله تعالى تكفل بحظ السنة كما القرآن؛ "لأن تَكفُّلِهِ بحفظ القرآن يستلزم تَكفُّلِهِ بحفظ بيانه وهو السنة وحفظ لسانه وهو العربية، إذ المقصود بقاء الحجة والهداية قائمة، بحيث ينالها من يطلبها؛ لأن محمدًا خاتم الأنبياء، وشريعته خاتمة الشرائع"[5].

وما أوردته غيض من فيض مما عجت به أحاديث النبي ﷺ وأقوال الصحابة الكرام يثبت بما لا يدع مجالًا للشك تدوين السنة النبوية في عصر النبوة وما بعدها، وأن كل ما ذهب إليه رواد الحداثة كذب وافتراء لا أساس له من الصحة.

*****

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: زكاة الغنم (ص٢٨٨، ٢٨٩) برقم (١٤٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب: الجنة تحت بارقة السيوف (ص٥٧٣) برقم (٢٨٣٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب: الصبر عند القتال (ص٥٧٦) برقم (٢٨١٨).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: الناس تبع لقريش والخلافة في قريش (ص٨١٥) برقم (١٨٢٢).

(٥) أحمد بن سليمان أيوب وآخرون، موسوعة محاسن الإسلام وردّ شبهات اللئام، شبهات عن السنة النبوية والأنبياء (٧/ ٨٧، ٨٨) دار إيلاف الدولية للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ٢٠١٥م.

المبحث الرابع

عدم حجية السنة

خاض التيار الحداثي معتركًا فكريًا حاولوا من خلاله الانتقاص من مكانة السنة النبوية، فبدءوا بإثبات أن محمدًا ﷺ شخصيًا عاديًا، وليس معصومًا ولا مُؤَيَدًا بالمعجزات، ثم حاولوا التأكيد على أن السنة النبوية ليست وحيًا من عند الله تعالى، وإنما هي من نسج خيال محمد؛ أما التراث المحمدي فقد تم تدوينه بعد موته بأكثر من مائة سنة، فتأخُر التدوين كان سببًا في فُقدان النص الأصلي للحديث، واختلاطه مع سائر العلوم التي تزامنت معه في التدوين، نتج عن ذلك عدم الاحتجاج بالسنة النبوية.\

وهذا ما دفع الشرفي ليقول: «الملفت للنظر أن أعلام اللغويين في القرن الثاني للهجرة؛ لم يعتبروا الحديث حجة، ولم يعتمدوه لا في وضع القواعد ولا في الشرح والتفسير، رغم تأكدهم من فصاحة النبي، كل ما في الأمر أنهم كانوا لا يثقون في أن ما ينسب إليه قد روي بلفظه لا بالمعنى فقط، لا سيما والمدة الفاضلة بين عصر النبوة وعهد التدوين تزيد على القرن، وأن الرواة لم يكونوا جميعًا من العرب الخُلّص، بل كان الموالي يمثلون الأغلبية المطلقة من بينهم، وكيف يثقون بالأحاديث وهم يرون عددها يتضخم من يوم إلى آخر، ويشيع فيها الوضع والكذب»[1]، واستخلص أحد خريجي المدرسة الحداثية مدعيًا "أن إنكار حجية السنّة يُعدُّ موقفًا متجذرًا في تراثنا الإسلامي منذ زمن الأئمة الأربعة، وهو ما ينفي أن تكون حجية السنة بمنزلة البدهي فلا ريب أن الضمير الإسلامي لم يقتنع بهذه البداهة إلا بعد قرون من انتصار مدرسة الحديث التي فرضت الاعتماد على السنة بصفتها أصلًا من أصول التشريع الإسلامي"[2].

وعلتهم في عدم الحجية، أنها لا تستقل بالتشريع[3]، ولا يؤمن طواطؤ نَقَلَة السنة على الكذب[4]، وزعموا أن التراث "يضم في طياته مواقف نقدية كثيرة رفضت حجية الحديث وطعنت في أمانة نقلته

---

(١) الشرفي، الإسلام بين الرسالة والتاريخ (ص١٧٧، ١٧٨).

(٢) حمادي ذويب، السنة بين الأصول والتاريخ (ص٧٠) المؤسسة العربية للتحديث الفكري، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.

(٣) أبو زيد، الإمام الشافعي (ص٨٣).

(٤) أبو زيد، الإمام الشافعي (ص١٠٣).

وأهملت الحديث في التشريع"[1]، لهذا فإن "عهد الرسول مرتبط به، ولا يقوم حجة على اللاحقين"[2]، ويرى آخر أن الأحاديث "حازت قدسية في المذهب السني ترفعها فوق القرآن كرامة وفعلًا وقدسية"[3]، ومن ثمّ رفضوا حجيتها.

والتيار الحداثي يرمي إلى فقدان الثقة في الحديث النبوي من خلال عدم الدقة في انتسابه إلى النبي ﷺ، وتأخر تدوين السنة النبوية قرنًا من الزمان بعده ﷺ، إضافة إلى كون الرواة غير عرب يكذبون فيضعون أحاديث لم ينطق بها الرسول الكريم ﷺ.

ووحجتهم أن اللغويين في القرن الثاني لم يعتبروا الحديث حجة؛ لعدم ثقتهم في نسبته للنبي ﷺ، فهذا كلام ليس عليه دليل، كما أن استنادهم لطول المدة بين التدوين في القرن الثاني وبين التدوين في عصر النبوة باطل؛ لأن الصحابة ﷺ كانت لبعضهم صحائف كتبوها بأيديهم كما بيّنا، وادعاؤهم بأن الرواة لم يكونوا من العرب الخلّص فساقط؛ لأن غير العرب برعوا في تعلم العربية كالبخاري ومسلم اللذين كتبا الصحيحين باللغة العربية، وأرى أن الدافع لإيراد مثل هذه الشبهة هو ازدراء الحداثيون للغة العربية، وشعورهم بالنقص لأنهم من الناطقين بها.

أما كون السنة لا تستقل بالتشريع فينبئ عن جهل مدقع وعبث فكري؛ لأن السنة وحي كما القرآن، وقد استقلت بأحكام لم يرد لها ذكر في القرآن الكريم كميراث الجدة، وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها.

ومسألة عدم ضمان نَقَلَة الحديث عن الكذب، فضرب من الإمعان في عدم الإدراك للضوابط والمعايير التي وضعها علماء الحديث لقبول روايات الأحاديث أو رفضها، وتصنيفها إلى مقبولة كالصحيح والحسن، ومردودة كالضعيف والموضوع.

---

(١) محمد حمزة، إسلام المجددين (ص٩٧) دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٧م.

(٢) فرج فودة، حوار حول العلمانية (ص١٢) القاهرة ١٩٩٣م.

(٣) القمني، انتكاسة المسلمين (ص١٥، ١٦).

واعتقادهم بتاريخية السنة وارتباطها بزمن النبي ﷺ وعدم صلاحيتها لكل زمان، فهو الخلل العقدي الحقيقي الذي تسبب في هذا الجهل المركّب، وإذا كان الأمر كما زعموا فلماذا استدلوا بحديث النبي ﷺ: «**لا تكتبوا عنّي ومن كتب عنّي غير القرآن فلْيَمْحُه**» على تأخر تدوين السنة؟ هل هؤلاء ينتقون من الأحاديث ما يخدم فكرتهم في تشويه السنة النبوية فقط؟ ونرى قضية حيازة السنّة لصفة القدسية في المذهب السني التي ترفعها فوق القرآن كذب وافتراء من القمني، وبعيدًا عن أيديولوجية الرجل الماركسية وانتمائه للشيعة؛ إلا أنه كاره للسنة النبوية بشكل واضح جدًا يظهر في كتاباته ولقاءاته المتلفزة.

وفي ثبوت الحجية قال الشوكاني: «الحاصل أن ثبوت حجية السنّة المطهرة واستقلالها بالتشريع ضرورة دينية، ولا يخالف في ذلك إلا من لا حظّ له في دين الإسلام»[1]، وقال البيهقي: «لولا ثبوت الحجة بالسنّة لما قال ﷺ في خطبته بعد تعليم من شهده أمر دينهم: «**ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع**»[2].

*****

المبحث الخامس

تشويه نَقَلَةِ السنّة النبوية

حط الحداثيون رحلَهم، ووقفوا عند من نَقَل السنة النبوية، فراحوا يشوهون سيرة الصحابة الكرام، ويلوثون تاريخهم المشرق، وأخذوا يطعنون في علماء الإسلام اعتقادًا منهم أنهم حجر العثرة الذي يحول دون طموحاتهم الفكرية، وتلخصت منهجيتهم في التشويه بين تشويه عام وتشويه خاص.

(١) محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول (١/ ١٨٩).

(٢) جلال الدين السيوطي، مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة (ص٤، ٥) إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، د.ت.

ومن صور التشويه العام، وصف الصحابة بالقداسة:

أنكر الحداثي الشيعي سيد القمني على المسلمين انحرافهم في تقديس الصحابة استنادًا لحديث: «**أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**»، وعرف الصحابي قائلًا: «هو من رأى الرسول ولو ساعة، وبهذا يكون تعداد الصحابة المقدسين بالآلاف، وهكذا استبدل المسلمون جاهلية ما قبل الإسلام، بجاهلية أكثر نكاية، وأشد ضررًا، تفتك بعقل المسلمين فتكًا»[1].

وقال في موضع آخر من انتكاسته: «ألْحَق المسلمون القدسية بمن لا قدسية لهم من بشر؛ كالصحابة مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم، أو كالمحدثين مثل البخاري، أو الإخباريين كابن كثير، حتى وصل التقديس إلى مشايخ وعاظ كالشعراوي مثلًا، فأصبحت تقام له المقامات، وتُعقد له الندوات وتصنع لتاريخه مسلسلات تعيد زمن المعجزات، والألطاف الربانية المتراة على رب العزة»[2].

لكني أقول إن الرجل الذي لم يخالط الحق بشاشة قلبه؛ لا بد أن يتقيأ أفكاره العفنة بين معتنقي فكره، وإذا كان هذا هو اعتقاده فإني أحب أن أقف مع كلامه وقفات قليلة.

أولًا/ المسلمون لا يقدسون الصحابة بل يحبونهم ويقتدون بهم، وإذا كان القمني يصف المسلمين بالانحراف؛ لأنهم يحبون الصحابة، فكيف به وبمن على شاكلته يقدسون الخميني والسيستاني وخامئني، وجميع المراجع الشيعية، مع أن الفارق شاسع بين تقديرنا وحبنا للصحابة الكرام وتقديسهم لهؤلاء، ولا شك أن عقيدة الشيعة في الصحابة الأطهار واضحة.

ثانيًا/ حديث أصحابي كالنجوم الذي استدل به القمني لا يصح؛ لأن فيه حمزة بن أبي حمزة الجزري، وقد طعن فيه العلماء وردوا حديثه، حيث قال: ابن معين: لا يساوى فلسًا، وقال عنه البخاري: مُنْكَر

(١) القمني، انتكاسة المسلمين إلى الوثنية (ص١٥).

(٢) القمني، انتكاسة المسلمين إلى الوثنية (ص١٦).

الحديث، وقال الدارقطني: متروك، وقال ابن عدى: عامة ما يرويه موضوع، وفيه أيضًا سليمان بن أبي كريمة وهو ضعيف[1].

ثالثًا/ تعريف القمني للصحابي تعريف مبتور وملغوم في الوقت نفسه، فالصحابي هو كما قال ابن حجر: من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به، ومات على الإسلام؛ فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى.

ويخرج بقيد الإيمان من لقيه كافرًا ولو أسلم بعد ذلك؛ إذا لم يجتمع به مرة أخرى، وقولنا: «به» يخرج من لقيه مؤمنًا بغيره، كمن لقيه من مؤمني أهل الكتاب قبل البعثة، ويدخل في قولنا: «مؤمنًا به» كل مكلف من الجن والإنس، وخرج بقولنا: «ومات على الإسلام» من لقيه مؤمنًا به ثم ارتد، ومات على ردته والعياذ بالله[2].

رابعًا/ حديثه عن الإمام البخاري والإمام ابن كثير والإمام الشعراوي بهذا النَّفَس، يَنُمّ عن فشله الذريع في عدم تحقيق ما حققوه من التأثير الفاعل بين أفراد الأمة المسلمة.

ومن صور التشويه العام أيضًا وصف الصحابة بالتآمر:

حيث وصفوا الفترة التي تلت موت النبي ﷺ وكأنها حرب تآمر فيها جمع كبير من الصحابة في سقيفة بني ساعدة؛ ليتولى الخلافة أبي بكر الصديق ﷺ منتهزًا الفرصة بهذا التأييد[3]، كما يزعم القمني تآمرهم في إحراق القرآن ليدونوا المصحف العثماني تحت إشرافهم وحدهم، ومن اعترض منهم نَكّلُوا به أشد تنكيل [4].

والواقع يرفض هذه الاتهامات الباطلة لجيل فريد من نوعه زكاه القرآن الكريم، وشهد العالم بفضله.

---

(١) محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: علي محمد البجاوي (١/ ٦٠٦، ٢/ ٢٢٢) دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت.

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، تبويب: محمد فؤاد عبد الباقي (٧/ ٤-٦) المكتبة السلفية، د.ت.

(٣) محمد الشرفي، الإسلام والحرية (ص١٥١) دار بترا للنشر، دمشق، سورية، ط١، ٢٠٠٨م.

(٤) القمني، انتكاسة المسلمين (ص٢١٠).

ومن صور التشويه العام وصف الصحابة بالجهل:

حيث افترض شحرور هذا الحوار قائلًا: «فإذا سألني سائل الآن ألا يسعك ما وسع الصحابة في فهم القرآن؟ فجوابي بكل جرأة ويقين هو: كلا لا يسعني ما وسعهم؛ لأن أرضيتى العلمية تختلف عن أرضيتهم، ومناهج البحث العلمى عندى تختلف عنهم، وأعيش في عصر مختلف تمامًا عن عصرهم والتحديات التى أواجهها تختلف عن تحدياتهم»[1].

والحق أن هذا الكلام يحمل غرورًا وكبرًا؛ كما تظهر فيه الكراهية لجيل الصحابة الكرام والطعن في علمهم، والمقصد هو تقريرعدم صلاحية القرآن الكريم والسنة النبوية لكل زمان ومكان، لكن هذا الكلام زعم باطل يجانب الحقيقة.

أما التشويه الخاص فقد طال أبي بكر الصديق حيث صوّروه بالشخص الطامع في السلطة[2]، كما طال أبي هريرة ﷺ، فقد اتهموه بالتدليس والكذب[3]، واتهموا ابن عباس بأنه وضّاع أحاديث[4]، ثم راحت أقلامهم تشوه الفقهاء على وجه العموم بأنهم محتالون على أحكام الدين[5]، وممالأة الحُكّام والسلاطين[6]، وهذا قادهم – حسب زعم الحداثيين – لاختراع أحاديث بناء على رغبة السلاطين[7]، ثم خصوا الإمام

(١) محمد شحرور، الكتاب والقرآن (ص٥٦٧).

(٢) محمد الشرفي، الإسلام والحرية (ص١٥١).

(٣) محمود أبو رية، شيخ المضيرة أبو هريرة (ص١٢٣، ١٦٥) مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٩٣م؛ وأضواء على السنة المحمدية (ص١٥٤).

(٤) الشرفي، الإسلام بين الرسالة والتاريخ (ص١٢٦).

(٥) القمني، شكرًا ابن لادن (ص١٠٧).

(٦) الشرفي، الإسلام والحرية (ص١٥٦).

(٧) القمني، شكرًا ابن لادن (ص١٠٨).

الشافعي باتهام أنه "مؤسس سلطة النصوص لتشمل كل مجالات الحياة الاجتماعية والمعرفية"[1]، فهو في نظرهم الذي فرض السنة النبوية[2].

وهدف الحداثيون بعد هذا التشويه في السنة والصحابة والعلماء، هو تمزيق ثقة المسلمين في دينهم وفي علمائهم، ليسهل انتقاد النصوص الشرعية دون أيّ مقاومة فكرية من المسلمين، إضافة إلى تغريب العقل المسلم، بحجة الوصول إلى فكرٍ يواكب التطورات ومستجدات العصر.

وفي ختام هذا البحث نؤكد أننا أمام فكر يحاول بشتى الطرق عبر مداد أقلام مأجورة أخرجت مكنون ما في صدورهم لتقويض الإسلام، والطعن في القرآن الكريم ونزع قداسته، والطعن السنة النبوية أيضًا، فراحوا يشككون في جمعها وتدوينها، مؤكدين على أنها ليست وحيًا فلا يحتج بها؛ ليصلوا بذلك إلى هـــدم الدين وتفكيكه، وهذه كلها مزاعم باطلة.

لهذا أهيب بالمؤسسات الإعلامية، والأروقة البحثية، والمنابر الدينية أن تُحذِّر من هذا الخطر الفكري الذي يهدد أمن المجتمع المسلم، وتتصدي بخطوات عملية لمثل هذه الأفكار الخبيثة، لتقف حجرعثرة في طريق تحقيق أحلام أصحابها.

ولا يفوتني أن أتقدم بخالص الشكر إلى جامعة الأزهر لرعايتها الكريمة لمثل هذا المؤتمر حفاظًا على الهوية والتراث، هذا وإن كان من توفيق فلله الفضل والمنة، وإن كان من خلل أو زلل فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

*****

(١) أبو زيد، الإمام الشافعي (ص١٤٥).

(٢) محمد أركون، الفكر الإسلامي قراءة عملية (ص٢٢).

المصادر والمراجع

١. ابن النجار، شرح الكوكب المنير، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد (الجزء الثاني) مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية ١٩٩٣م.

٢. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تبويب: محمد فؤاد عبد الباقي (الجزء السابع/ كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ) المكتبة السلفية، د.ت.

٣. الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (الجزء السابع والعشرون) دار التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت.

٤. الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، وطبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية القطرية، قطر ٢٠١٧م.

٥. الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (الجزء السابع والعشرون) الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤م.

٦. القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى الرسول ﷺ، تحقيق: عبده علي كوشك، جائزة دبيّ الدولية للقرآن الكريم، وحدة البحوث والدراسات، الإمارات العربية المتحدة ٢٠١٣م.

٧. أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض (الجزء الثامن) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

٨. أحمد بن سليمان أيوب وآخرون، موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام، شبهات عن السنة النبوية والأنبياء (الجزء السابع) دار إيلاف الدولية للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى ٢٠١٥م.

٩. أحمد بن شعيب النسائي في السنن، تحقيق: مركز البحوث وتقنية المعلومات (الجزء السابع) دار التأصيل، القاهرة، طبعة وزارة الأوقاف القطرية، الطبعة الأولى ٢٠١٢م.

١٠. أحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير، تحقيق: د/ عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٧٧م.

١١. أحمد سعد العش، تدوين السنة النبوية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٧١م.

١٢. جلال الدين السيوطي، مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، طبعة إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، د.ت.

١٣. حسن حنفي، دراسات فلسفية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
١٤. حمادي ذويب، السنة بين الأصول والتاريخ، المؤسسة العربية للتحديث الفكري، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.
١٥. دي روزا، التاريخ الأسود للكنيسة، ترجمة: آسر حطيبة، الدار المصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
١٦. سيد القمني، الأسطورة والتراث، المركز المصري لبحوث الحضارة، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٩٩م.
١٧. سيد القمني، انتكاسة المسلمين إلى الوثنية، الانتشار العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠١٠م.
١٨. صادق جلال العظم، نقد الفكر الديني، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة ٢٠٠٣م.
١٩. صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه عرض ودراسة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة عشرة ١٩٨٤م.
٢٠. طيب تيزيني، النص القرآني، دار الينابيع، دمشق، سوريا ١٩٩٧م.
٢١. طيب تيزيني، مقدمات أولية في الإسلام المحمدي الباكر نشأة وتأسيسًا، مطبعة جوهر الشام، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
٢٢. عبد المجيد الشرفي، الإسلام بين الرسالة والتاريخ، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ٢٠٠٨م.
٢٣. عبد المجيد الشرفي، الإسلام والحداثة، الدار التونسية للنشر، تونس، الطبعة الثانية ١٩٩١م.
٢٤. عدنان علي رضا النحوي، الحداثة من منظور إيماني، دار النحوي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الثالثة ١٩٨٩م.
٢٥. علي حرب، نقد النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الرابعة ٢٠٠٥م.
٢٦. عمار عبد الكريم عبد المجيد، الانحراف المعاصر في تفسير القرآن الكريم (الجزء الأول) وحدة البحوث والدراسات لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى ٢٠١٦م.